

## الدكتور شبلي شميل

في اليوم الاول من هذه السنة الميلادية سنة (١٩١٧) اغتالت المنية الطبيب  
النطاسي ، الحكيم الاجتماعي ، العالم الطبيعي ، الاديب الكاتب ، الناظم الناثر ،  
الدكتور شبلي شميل الشهير بتصانيفه ومقالاته العلمية والاجتماعية في المجالات والجرائد  
العربية والفرنسية

كان شبلي فذا نادر المثل في مجموعة علومه واعماله وافكاره وأخلاقه والذي  
يحملنا على ترجمته انه كان من طلاب الاصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين  
— وقليل ما هم — لامن الذين اتخذوا العلم ذريعة لجمع المال ولا وسيلة للجهاد كما هو  
شأن السواد الاعظم من المتعلمين ، فهو لم يدخر مالا ولم يتأثر عقارا ، ولم يصرف  
جل أوقاته للكسب ، بل كان اشتغاله بالامور الاجتماعية أكثر من اشتغاله بالطب ،  
ومثل هذا يكون مؤثرا في أهل جيله تأثيرا نافعا أو ضارا لا كالذين يعدون من العلماء  
بورقة شهادة يحملها كل منهم بيده ونرى أنه يعيش عمرا طويلا ثم يموت كما يموت  
العصفور لا يترك أثرا في جيله ينسب اليه. لهذا نذكر عن هذا الرجل أهم ما نرى فيه  
العبرة من ترجمته فنقول:

كان أول من نشر مذهب دارون باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه اذ كان  
رجال الدين ولا سيما الكاثوليك الذين نشأ شميل على مذهبهم يعدون هذا المذهب  
من دعائم الكفر ، ولم يكتف الرجل بذلك بل كان يصرح قولا وكتابة بالتعطيل  
والالحاد ، ولم يتجرأ أحد قبله على ما تجرأ عليه من ذلك فيما نعلم مع كثرة الذين زاغت  
عقائدهم من المتعلمين على الطريقة الاوربية الحديثة. ومن الغريب أن نرى المهامين  
عن النصرانية وكتبها الدينية كاليسوعيين (الجزويت) لم يتصدوا لارد على الدكتور  
شميل كدأ بهم في الرد على أمثاله من كتاب الشرق والغرب ، وقد كانت مجلاتهم  
(المشرق) واقفة بالمرصاد للمقنطف والمهلل وغيرهما من الصحف المنشورة كلما نشر  
فيها شيء يخالف الدين أو المذهب الكاثوليكي ردوا عليه أشد الرد . فاذا كان  
(المنار: ج ١٠) (٧٩) (المجلد التاسع عشر)

الجزويت لم يشنعوا على الدكتور شبلي شميل كما شنعوا على من لم يجهر بمثل ماجهر به فلا عجب اذا سكت عنه من دونهم عصبية وعناية بهذا الامر ، وأكبر ما بلغنا من مقاومة بعض القسيسين له أنهم كانوا ينهون بعض الناس سرًا عن دعوته لمعالجة مرضاهم . وجهور المتعلمين على الطريقة العصرية من السوريين في مصر وسورية وأمريكا يحبون الدكتور شميل ويعدونه من دعاة الاصلاح الاجتماعي المخلصين ومنهم من ينلو فيه ، أما النصارى منهم — وهم الاكثرون — فلا يرون عدم تدينه ما نما من اصلاحه الاجتماعي اذ لا علاقة للدين بذلك عندهم ، ولا شك في كون هذا من تساهلهم الذي قاربوا به الافرنج ، وأما المسلمون فلا يرون مروقته من عقيدته التي نشأ عليها مبعدا له عنهم لانها ليست عقيدتهم فهو في نظرهم طيب عالم اجتماعي غير مسلم ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم الى التساهل والانصاف لحرية واستقلال فكره . وله أصدقاء من مسلمي مصر لهم يزيدون على أصدقائه من مسلمي سورية الذين لا يعرفه أكثرهم الا بالسماع

وأمامذهب دارون فقد تكلم بعض علماء المسلمين فيه وفي مخالفته لظواهر النصوص في خلق آدم عليه السلام، ولم يجملوا ذلك ردا على الدكتور شميل لانه لم يكن صاحب المذهب ، وقد سبق أسياننا الى الرد على مذهب دارون وأول ما رأيناه في ذلك ما أبرزه لنا الاستاذ الامام في ترجمته لرسالة استاذه الحكيم السيد جمال الدين التي سماها الرد على الدهريين . ثم ما كتبه استاذي الذي نخرجت على يديه الشيخ حسين الجسر في الرسالة الحميدية فهو قد تلخص هذا المذهب وبين أن دلائله في أصل البشرية لم تصل الى درجة القطع ، وأنها لو ثبتت وصارت يقينية لا تكون حجة على الاسلام لا يمكن تأويل ظواهر النصوص الواردة في الكتاب والسنة في خلق آدم . وقد أقر أكابر علماء سورية شيخنا على تلك الرسالة وترجمت بالتركية فأقرها علماء الترك ، وكافأه السلطان عبد الحميد على خدمته للاسلام بها برتبة علمية عالية وراتب شهري . ورغب اليه ان يكون من شيوخ قصره فاعتذر وعاد الى طرابلس الشام بعد ان أقام في قصر يلدز عدة شهورا ضيفا مكرما عند السلطان . وأما علماء الازهر فقد اطلع كثير منهم على الرسالة الحميدية وأهجم بها . ولكن لم

نسمع ان أحداً منهم كتب في موضوعها شيئاً  
 بينا رأيي المسلمين الذين يعرفون الدكتور شبلي فيه وانهم كانوا يرونه أقرب إلى  
 التساهل والانصاف، وبيان ذلك انه كان يقول انه لا يوجد دين اجتماعي يتفق مع  
 مصالح البشر المدنية الا دين القرآن. سمعت هذا منه غير مرة. وأخبرني أنه طالما خطر  
 في باله ان يجمع ما في القرآن من الآيات الواردة في المسائل الاجتماعية والادبية  
 ويفسرها تفسيراً علمياً اجتماعياً. وانه قد حاول هذا الجهد فصعب عليه تجريد ما أراد  
 لما في القرآن من المزج بين هذه المسائل والمسائل الروحية الاخرى. وقال لي  
 انك أقدر مني على تجريد ما أريد فلو فعلت لكان تفسيرى نافماً لك فيما تتوخاه  
 من التوفيق بين الاسلام والعلم المصري والحضارة المصرية ومن نشر محاسن  
 الاسلام بين الناس لان الوفا من الناس يقرؤون تفسيرى ولا يقرؤون تفسيرك  
 وأما رأيي في نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فهو انه كان يفضل على جميع البشر  
 وقد كتب الي منذ تسع سنين كتاباً أودعه أياً من الشعر في ذلك : هذا نصه :

الى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار  
 أنت تنظر الى محمد كنبى فتجمله عظيمًا وانا أنظر اليه كرجل واجمله أعظم . ونحن  
 وان كنا في الاعتقاد ( الدين أو المبدأ الدينى ) على طرفي قبيض فالجامع بيننا العقل  
 الواسع والاخلاص في القول وذلك أوثق بيننا امرى المودة .

من صديقك الدكتور شميل

( الحق أولى أن يقال )

دع من محمد في سدى قرآنه	ما قد نجاه للحمه الغايات
أبي وان أك قد كفرت بدينه	هل أكفرن بمحكم الآيات
أوما حوت في ناصع الالفاظ من	حكم روادع للهوى وعظمت
وشرائع لو اتهم عقلاؤها	ما قيدوا العمران بالهاديات
نعم المدير والمصكيم وانه	رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجارجل السياسة والدها	بطل حليف النصر في الغارات
بلاغة القرآن قد نخلب النهى	وبسيفه أنهى على الهامات

من دونه الا بطل في كل الوري من سابق أو لاحق أو آت  
وقد نشرنا هذا الكتاب والايات في (ج ١ م ١١) في معرض الرد على  
الفرنس كائتاني في زعمه أن نجاح النبي (ص) كان في كفاءته من حيث هو سيامي  
مخلك أكثر من نجاحه من حيث هونبي، وإن حنكته وسياسته أفادا أكثر من افادة  
القرآن. رددنا على صاحب هذا القول وعلى المؤيد الذي نقل كلامه وأقره وعلى  
الدكتور شميل فيما زعمه من أن النبي (ص) أفضل من حيث كونه رجلا منه من  
حيث كونه نبيا. وسألنا الله تعالى أن يهديه الى الباقي من مزايا كتابنا ورسولنا (ص)  
وهو المهم الاعظم المتعلق بأمر الدين والآخرة الذي أشار اليه في البيت الاول وكفر  
به في البيت الثاني، فقد صرح لنا بأن مراده بلحمة الغايات أمور الآخرة  
ان الدكتور شبلي شميل قد اهتدى بالاطلاع على القرآن الحكيم الى ما فيه من  
الحكم الروادع للهوى والشرائع الموافقة لاصول العمران حتى في هذا الزمان .  
وبالاطلاع على سيرة النبي (ص) الى كونه قد فاق جميع أبطال البشر وعظماهم —  
ويدخل فيهم عنده أكابر الانبياء عليهم السلام وكبار الساسة وقواد الحروب وأهل  
الفصاحة والادب . فلو ان الدكتور تأمل فيما اهتدى اليه من هذين الامرين وكان  
مؤمنا بالله تعالى لجزم بكونه نبيا مرسلا من عنده عز وجل ، لان ما امتاز به كتابه  
وما امتاز به شخصه على جميع البشر من سابق أو لاحق أو آت إنما كان بعد ان  
بلغ أربعين سنة في الامية بين أهل الشرك والجاهلية فهل يعقل أن يحدث هذه المزايا  
العلمية العملية الادبية العمرانية الحربية السياسية الاجتماعية لرجل في سن الكهولة دفعة  
واحدة ؟ كلا ان هذا لا يعقل أن يكون الا بوحى وتأيد من الله عز وجل . ولكن  
كثيرا من الباحثين في مثل هذه المسألة يبحثون فيها من جهة واحدة منصرفين عن  
سائر الجهات فلا يحيطون بسائر أطراف المسألة ، والصوارف عن أمثال هذه  
المباحث كثيرة أظهرها كون انكار الاديان عندهم من القضايا المسلمات، وكنت أرى  
ان للدكتور شبلي شميل مانعا قلما يشاركه فيه غيره في بلاده وهو عده الجرأة على التصريح  
بالتعطيل مزية من المزايا العظيمة التي انفرد بها، وحب الامتياز من هوائن البشر الراسخة  
فمن رأى نفسه قد انفردت بشيء منه قلما يفكر ويبحث في شيء من شأنه أن يذهب

بما انفرد به . على ان رجال الدين الذين على مذهب أسرته الذي نشأ عليه ثم ارتد عنه قد حكموا بأنه تاب من رذته وعاد قبل الموت الى دينه ومذهبه الاولين وذلك جنتزوه وصلوا عليه في كنيستهم ودفنوه في مقابرهم ، وجاهير الناس يرتابون في ذلك أو يجزمون بخلافه ويمدون هذا من غرائب تساهل الكاثوليك

كان الدكتور شبلي شميل من دعاة الاشتراكية وهو مستقل برأيه فيها غير مقلد لمخاتفة من طوائفها ، وكان ماديا في آرائه وأفكاره الا انه كان متحليا بكثير من الاخلاق الحسنة المحمودة التي يضاد بعضها ما تقتضيه الافكار المادية التي غلبت على عقله وخياله ، كالرأفة والسخاء والصدق والوفاء والنجدة والمروءة والشجاعة وغير ذلك . وان تحلي بعض المعطلين بالفضائل من أقوى الشبهات على الدين في هذا العصر ، فانا نسمع كثيرا من المرتابين أو الراسخين في الكفر يقولون أي حاجة للناس في الدين وانا نرى كثيرا من المصلين الصائمين منغمسين في المعاصي والذنوب ، بل نرى كثيرا من رؤساء الاديان الرسميين كذابين طامعين أدنياً بخلاء لا يرجي منهم معروف ، ونرى فلانا وفلاننا لادين لهم متحلين بالاخلاق الفاضلة والآداب العالية والسبق الى عمل المعروف وقد أجبنا عن هذه الشبهة في المنار غير مرة واتخذت تأبين الدكتور فرصة لبيان ذلك للاجتهور

في اليوم المتمم الاربعين من تاريخ وفاته أقام النادي السوري في القاهرة حفلة تأبين للدكتور الذي هو من نوابغ السوريين بلاخلاف أجاب الدعوة اليها مئات من أهل العلم والادب والوجاهة من سكان القاهرة على اختلاف مناهبهم ونحلهم فغص النادي بهم ، وافتتح الجلسة رئيسها احمد حشمت باشا بخطبة وجيزة أطرى فيها المؤمن اطراء كبيرا . ثم دعي الدكتور يعثوب صروف الى الكلام في علم الدكتور شميل وهو أعلم الناس به وبعلمه فجاء من ذلك بخلاصة جهمت فأوعت . ثم دعيت الى الكلام على أخلاقه فقلت ما خلاصته على ما أتذكر الآن :

« أشكر لادارة النادي السوري اختيارهم اياي للكلام في أخلاق الدكتور شبلي شميل فان الكلام في الاخلاق أحب الي لان أثرها في حياة الناس العملية أعظم من أثر العلم لان العلم يبين طرق العمل والاخلاق هي التي تبث عليه وتهدى

الى الغاية منه ففسن الاخلاق هو الذي يجعل العلم نافعا وسوء الاخلاق قد يجعله ضارا ،  
ولذلك شبه حكماؤنا علم فاسد الاخلاق بالسيف في يد المجنون ، وانما نرى مبلغ  
تأثير ضرر العلم بسوء استعماله في الحرب الاوربية الحاضرة التي كان الموقف لغيرها  
بعض الاخلاق المذمومة من الطمع والكبر وحسب العلم واستعباد الاقوياء للضعفاء  
على ان العمل النافع لا يرتقي الا بالعلم ، وما ساد بعض الامم على بعض الا بالعلم ،  
( هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) وانما تظهر حقيقة المرء وتعرف  
ترجمته ببيان علمه وأخلاقه وأعماله ، وقد أحسن النادي باختيار العلامة الدكتور  
صروف للكلام على علم الدكتور شميلي فهو أعلم منا بهذه العلوم ويمكن الرجل منها  
وقد جاء بفصل الخطاب في ذلك

كان الدكتور شميلي متحملا بعدة من الاخلاق الحميدة التي لا يرتقي العمران  
البشري الا بكثرة المتحملين بها في الامم كالصدق واستقلال الرأي والشجاعة والثبات  
والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرافة ، يعرف له ذلك كل من عرفه ، وكل خلق  
من هذه الاخلاق له تأثير في أعمال الناس ومعاملاتهم ولا يمكن بيان ذلك بالتفصيل  
في وقت قصير محدود كوقتنا هذا وانما أشير الى بعض ذلك بالايجاز فأقول :

ان من أضر مفاصد الكذب طمس الحقائق وابطال ثقة الناس بعضهم ببعض  
فالكذاب لا يوثق بخبره ولا بعلمه ولا برأيه ولا يمكن أن يرتقي قوم فقدت الثقة  
من بينهم . ومن أكبر بواعث الكذب الجبن ولولا ما أوتي الدكتور شميلي من  
الجرأة والشجاعة لما أمكنه أن يكون صادقا يقول ما يعتقد وان كان مما ينكره  
عليه ويكرهه منه أهله وقومه والسواد الاعظم من أهل وطنه ، والشاهد على هذا  
تصريحه قولا وكتابة بالآراء التي تخالف عقائد هؤلاء الذين يعيش معهم والمعروف  
أن الخوف من عاقبة قول الصدق ، هو الذي يحمل الناس على الكذب ، ولذلك  
يكثُر في عهد الاستبداد والظلم ، ولكننا نرى كثيرا من كهراء الحكام ورؤساء الناس  
في بلاد كثيرة يكذبون على رعاياهم ومرءوسيتهم ، فلا يتجربون على التصريح لهم  
بما لا يرضيهم ، وان كان التصريح خيرا لهم ، وهكذا يعيش كثير من أكابر الناس  
وأصاغرهم عيشة الكذب والغش والرياء والنفاق لجبنهم وضعف ملكة الاستقلال

فيهم ، ولم يكن شميل مرآيا ولا مناققا بل كان مستقلا شجاعا يقول ما يعتقد حقا  
وصوابا غير هيب ولا وجل

وكان على جرأته وشدهته في آرائه رقيق القلب سخي النفس ، فكان اذا دعى الى  
معالجة قدير ينفذ اليه مرتاحا ويعالجه بجانا وربما اشترى له اللواء ، وزاده عن الغذاء ،  
على انه لم يكن ذا فضل من المال ، واننا نرى كثيرا من الاغنياء البخلاء ، يمتالون  
على أكل أموال الناس حتى الفقراء والادباء ، ونحن أصحاب الصحف قد جربنا  
جميع أصناف الناس فوجدنا في كل صنف منهم ( حتى علماء الدين وكبار الحكام من  
قضاة وقبرهم ) انما يتعمدون هضم الحق فيعدون جابي الصحة ويمطلون ، حتى  
تمر الشهور والسنون ، ولا يعدقون ولا يفون . فهل يمكن ان ترقي أمة الا بزوال  
هؤلاء أوزوال النعمة من أيديهم ؟ ان السخي لا يمنع حق أحد ، لان من يعطي  
الناس من ماله ما ليس لهم ، لا يعقل ان يمسك عنهم ما هو لهم ، وفي مثل شائع بين  
كثير من المسلمين : ان الذي يزكي لا يسرق .

وهنا مسألة مهمة تخفى على كثير من الناس ، وهي ان اكثر مكارم الاخلاق لا تنطبع  
في النفس الا بالتربية الدينية ، وتكون عرضة للفساد بالتعطيل والافكار المادية ، فكيف  
انصف الدكتور شميل بتلك الاخلاق الحسنة مع كونه كان ماديا مطلقا ؟ يحتاج بهذه  
الشبهة بعض الملاحدة على عدم الحاجة الى الدين قائلين اننا نرى فلانا وفلانا ممن  
مرقوا من الدين أفضل أخلاقا وآدابا من المتدينين الذين نرى من رؤسائهم وعلمائهم  
من نشأ فيهم الكذب والطمع والدناءة والبخل والجبن والرياء والنفاق ، والجواب عن  
هذه الشبهة ان فاسدي الاخلاق من المنسوبين الى الدين لم يربوا تربية دينية  
صحيحة بل لم يكن لهم حظ من الدين الا الاسم أو تعود بعض العبادات من غير  
فهم لحكها ولا قيام بحقها ، وان أولئك المعطلين الحسني الاخلاق قد تربوا تربية  
دينية تكونت بها أخلاقهم الفاضلة ثم طرأت عليهم فكرة التعطيل في الكبر فلم تطمس  
ما طبع في النفس من أخلاقهم ، فقد حدثني الدكتور شميل عن نفسه انه كان في نشأته  
الاولى مبالغا في التدين مواظبا على العبادات ، وان فكرة التعطيل ما طرأت عليه الا  
بعد سفره الى أوربة ، فقد لقي في فرنسا عالما ماديا قال له كلمة هدمت عقيدته الدينية

هدماء ولم يذكر لي تلك الكلمة. وأقول انها لم تهدم تأثير التربية الدينية في نفسه، ولا ماورثه من أخلاق أهل بيته ، ولا هجبت فقد ثبت في العلم الحديث ان لكل نوع من المفردات الفكرية والوجدانية مركزا خاصا في دماغ الانسان ، وما كل فكر يأخذه المرء بالتسليم يؤثر في أخلاقه وأدابه العملية بل لا بد في هذا التأثير من التربية العملية أو كونه عقيدة يمجزم صاحبها اعتقادا ووجدانا بأن العمل بمقتضاها سعادة، وتركها شقاوة لا تعدلها شقاوة ، وفكرة الإلحاد ليست كذلك ، فهي قد كانت محصورة في مركز صغير من دماغ الدكتور شميل له صلة بلسانه ولا سلطان له على قلبه ، ولذلك كانت تظهر أحيانا في كلامه ولكنها لم تنزع من نفسه ما تربى عليه في بيته من الاخلاق الدينية كالصدق والرحمة والسخاء وغير ذلك »

ثم ذكرت في التآبين رأي الدكتور في الاسلام وفي نبينا عليه الصلاة والسلام وقرأت كتابه وأبياته في ذلك وقد تقدم ذكرها في هذه الترجمة

هذا ما أتذكره من كلامي في أخلاق الدكتور شميل لم أترك منه شيئا ولكنني زدت مسألة الشبهة الاخيرة أيضا لاني رأيت بعض الناس لم يفهمها حتى قال لي بعضهم ان التآبين يقصد به المدح وأنت ذممت الرجل وجعلته مجنوناً ، وأنا أخذ جعلي إياه مجنوناً من قولي ان فكرة الكفر والالحاد قد طرأت على دماغه في الكبر، وقد صيرت بكلمة المخ بدل الدماغ ففهم ذلك الرجل وغيره من ذلك ما فهموا ولنظروا به ثم دعي الدكتور شميل الى الكلام في سيرة شميل الطبية فقرأ خطبة طويلة بالفرنسية بين فيها ذلك . ودهي محمد حافظ بك ابراهيم فأشدد قصيدة بليغة استعاد الجمهور كثيرا من أبياتها مرارا. ودعي أيضا كل من انطون جميل الاديب المشهور وحسن افندي الشريف وهو شاب من أبيار وأميل افندي زيدان صاحب الللال فألقى كل منهما خطبة فصيحة أطرى فيها الفريد إطراء الشاب الممتلى اعجابا بأرائه وأفكاره ونشاطه وهمته ، فدل ذلك على تأثير الرجل في أنفس النابتة الجديدة . ثم قام ابن أخيه رشيد بك شميل صاحب جريدة البصير فشكر للنادي السوري وللمؤنين عليهم ، وانقضت الحفلة